

الفصل السادس

محور الدعوة

مقدمة

لقد جاء الأمر بالدعوة صريحا وبخطاب موجه للفرد المؤمن ولكنه جاء مقرونا بما يشبه التفصيل في بيان وسائل الدعوة وذلك في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وجاء نص آخر منها إلى اللين مع المدعويين وبيان أن الفظاظ والغلظة تؤدي إلى عكس مقصود الداعية وذلك في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وجاء نص آخر ينهى عن سب الذين أشركوا مبينا ما يترتب عليه، ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسِبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وفي السنة النبوية أمر بالدعوة يكاد يعين الأمر بالدعوة على جميع المسلمين وهو قوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية» ولكن تعددت النصوص السنية فتبينت وسائل الدعوة خاصة اللين واليسر ناهيك عن ضد ذلك، نجد هذا مثلاً في قوله ﷺ: «إِذَا بَعِثْتُمْ هِدَاةَ لَا جَبَاةَ» وقوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا» وهكذا.

رغم كل ذلك نجد بعض المسلمين يحملهم الحماس للدعوة على عكس أدب الدعوة فيأخذون الناس بالشدة ويلفظون عليهم في العبادة ولا تنبههم إلى خطئهم نتائج وسائلهم التي تأتي تماماً حسب ما حذرت منه النصوص آنفة الذكر، تنفر المدعويين بدل أن تكسيهم لصالح الدعوة. وأكثر من ذلك فإن البعض يمارس الدعوة عن طريق العنف والإكراه كأنما يريد أن يدعم فرية انتشار الإسلام بحدد السيف، يسمى ذلك جهاداً ويفهم الجهاد ابتداء بالقتال ومحاولة إكراه الآخر على اعتناق الدين، لذلك يلزمنا أن نراجع وسائل وأساليب الدعوة لضبطها بضوابطها التي جاءت في الكتاب والسنة اقتفاء لأثر المصطفى ﷺ.

هكذا فإننا نرى أن أساليب الدعوة ينبغي أن تتأى عن العنف وتركز على التوعية والتربية والتعبئة مستخدمة في ذلك وسائل الإعلام ومنابر الدعوة، منضبطة بأساليبها التي يبتتها نصوص الكتاب والسنة على أن تنطلق من فهم شامل للإسلام كعقيدة وعبادات ومنهج حياة.

أساليب الدعوة والتغيير الاجتماعي

في ظروف معينة، وأمام زحف التآمر على ديار المسلمين اجتهد بعض الفقهاء ورأوا أن حماية بيضة الإسلام توجب تقديس المسؤولية السياسية، وعلى نفس النمط اجتهد الشيخ أبو الأعلى المودودي^(١) وصاغ مفهوم الحاكمية لله على نحو مشابه لمقولة الإمرة لله. إن الذين رأوا باجتهاد معاصر أن يعطوا الإمرة أو القيادة السياسية قدسية تناهز قدسية العقائد والعبادات مهدوا للتطرف الإسلامي المعاصر الذي جعل اجتهد أصحابه السياسى هو موقف الأمة كل الأمة ونفى رأى الآخرين باعتباره كفرا وخروجاً عن ملة الإسلام. هذا الاعتقاد هو الذى مهد للتيارات الاحتجاجية المتطرفة المعاصرة، عبر تكريسه للاستبداد وفتح باب المظالم السياسية والاجتماعية.

نعم إن المسلمين فى محنة ويواجهون اضطهادا عظيما وإذلالا على يد الهيمنة الدولية وإسرائيل. إن أصحاب هذا الاتجاه اعتبروا أنفسهم مبعوثى العناية الإلهية واستحلوا لأنفسهم العمل لاستلام السلطة بالقوة والانفراد بها واستحلوا لأنفسهم استخدام أساليب العنف العشوائى الذى يزهق الأرواح البريئة ويدمر الأملاك فى سبيل تحقيق أهدافهم.

الإمرة لا تكون فى شريعة الإسلام إلا عن طريق: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] والعمل من أجل الأهداف مهما عظمت لا يكون إلا بموجب ﴿ادْعَ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] . و﴿فَقُلُوبًا هَآلِكًا وَانْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩] وقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١]

٢١، ٢٢] وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]. والقتال في الإسلام له ضوابطه وهي: الدفاع عن النفس وعن حرية الدعوة. إن ربط الإسلام بالسلطة السياسية المستبدة، وربط العمل الإسلامي بأساليب العنف العشوائي جلب للإسلام ضررا كبيرا وأعطى أعداءه حجة قوية للنيل من ديباجته الوضاعة.

إن علينا معشر أهل القبلة أن نرفض أية عملية استيلاء على السلطة بالقوة الغاشمة لا سيما الانقلاب العسكرى. وأن نرفض أية دولة تقوم على أساس بوليسى يقهر الناس. وأن نرفض أية صلة بين الدعوة للإسلام والعنف العشوائي. وأن نعتبر الاستيلاء على السلطة باسم الإسلام ترهيبا بعيدا عن مقاصد الشريعة، كما نعتبر أية دولة بوليسية قاهرة خارجة على مقاصد الشريعة.

لقد صار نهج الذين ربطوا الإسلام بالاستبداد الغاشم وهم في السلطة، والذين انتهجوا العنف العشوائي كأسلوب لمعارضة النظم الشرعية، وإن كانت شرعيتها ظنية، سبة على الإسلام، ووسيلة للإساءة إليه، ومخلب قط للتدخل الأجنبى، لذلك وجب علينا أن نتبرأ منهم وندين نهجهم. . هذا طبعاً لا ينطبق على الذين يتخذون العنف أسلوباً لمقاومة الاحتلال الأجنبى، فهم إنما يردون على العدوان بمثله: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

إن أسلوب الدعوة المشروع هو بالتى هى أحسن، والتغيير المشروع هو بالتعبئة الشعبية وبالعامل المدنى الخدمى وبالترجيح الديمقراطى لأن أساليب العنف ضد النظم المؤسسة بشرعية ذات قبول واسع يؤدى لنتائج عكسية، لا سيما العنف العشوائي والانقلابات العسكرية التى ما بنت قصراً إلا هدمت مصراً وما ادعت عمل إصلاح إلا أتت أضعاف أضعافه من الإخفاق.

التصوف

التطلع للاندماج فى خالق الوجود، والترفع عن الانغماس فى مباحج الوجود، نزعتان عرفهما الفكر الدينى والفكر الفلسفى، وهما أساس «المستزسم» فى الأديان والاستشراق فى الفلسفات، والتصوف فى الإسلام.

كل مقولات الإسلاميين تعود إلى مراجع فى النصوص المقدسة، وإلى الظروف المحيطة بالمسلمين. النصوص الإسلامية الموحية بالتصوف كثيرة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [الحديد: ٢٨] وقال فى حديث قدسى رواه البخارى^(٢): «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَى عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ فَإِذَا أَحَبَّهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرَجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيْتَهُ وَلَكِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِذَّنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَلَتَهُ» .

أما الظروف الاجتماعية والتاريخية التى دفعت نحو التصوف فكثيرة أهمها أن الدول التاريخية التى حكمت المسلمين بعد المصدر الأول تشبهت بدول الأكاسرة والقيصرية فى كثير من مناهجها، مغفلة كثيرا من الهداية الروحية والخلقية كما أن النظام الاقتصادى الذى واكبها تسم بصفات رأسمالية أنانية خالية من رحمت العدالة الاجتماعية .

هذا الجفاف والتصحر الروحى والخلقى أوجد الحاجة الماسة لمنظومة غيبية تشبع التطلعات الروحية والغايات المثالية .

كذلك اندفعت الاجتهادات الفقهية لدى كثير من المجتهدين فى اتجاهات ركزت على الشعائر وعلى صياغة الأحكام فغلبت عليها شكليات التقنين على حساب النوايا والجذور الروحية .

الحكم القائم على الاستبداد السلطانى وسع المسافة بين الحكام والرعية . والاجتهاد الفقهي القائم على الشعائر والأحكام وسع المسافة بين الفقهاء والمفتين من جانب والجمهور العريض .

نشط التصوف لسد هذه الثغرات ، واستطاعت الطرق الصوفية أن توفر للمريدين واحات للإشباع الروحى والتربوى فى المجتمعات الإسلامية . كما استطاعت فى وقت انشغال الدول الإسلامية بأولويات السلطة والمال ، أن تعنى بالدعوة للإسلام ونشره فى كثير من بقاع الأرض فى آسيا وأفريقيا وأوروبا .

استطاعت الطرق الصوفية أن توفر للمجتمعات الإسلامية مواعين انتماء حميم ومباشر، وكسبت للإسلام أراض جديدة، وفي ظروف التغلب الأجنبي ابتدعت وسائل تعايش سلمى معه، وفي الظروف التي جعلت المجتمع المسلم أسيراً في قبضة نظام سياسى مجاهر بالإلحاد كالاتحاد السوفيتى (سابقاً) وفرت للمسلمين وسائل بيات شتوى أبقى على العقيدة حية فى شكل خافت.

ينبغى لنا ونحن نتطلع لمرجعية إسلامية جديدة أن نلقى الضوء على كافة مقولات الإسلاميين ذات الوزن فى المجتمعات الإسلامية لدعم الإيجابيات وتجنب السلبيات.

أهم ما لحق بالتصوف من سلبيات

(أ) نزعة الاندماج فى خالق الوجود تأثرت بفلسفات هندية ويونانية ودفعت ببعض المدارس الصوفية نحو رؤى حلولية وتصورات تعتقد بوحدة الوجود.

(ب) شعبية التصوف جعلته أكثر ارتباطاً برؤى التدين لدى الأوساط الشعبية وهى رؤى مستغرقة فى الغيبات والعجائبات.

(ج) سحب التصوف اهتمام بالنجاة الفردية على حساب الاهتمام بالإصلاح السياسى الاجتماعى ودفع استحقاقاته.

(د) فى كثير من الأحيان أدى التعايش مع المتغلبين إلى التخلي عن واجبات التحرير.

إن التصوف قوة حية فى المجتمعات الإسلامية ولا يرجى استنهاضها ما لم تحدث صحوه صوفية تعزز الإيجابيات وتتجاوز السلبيات.

إن للتصوف دوراً هاماً فى المجالات الآتية:

أولاً: التركيز على رابطة المحبة بين الله والناس، وبين المؤمنين تركيز من شأنه أن يدعم التسامح وقبول الآخر.

ثانياً: إشباع الجوع الروحى والتربوى لدى الشباب لكيلا يقعون فريسة لتيارات الغلو التى تقودهم لاحتجاجات العنف العشوائى.

هذا النهج الإعلامى هو السبيل لإعلام مسترشد بهداية الإسلام متفتح لحضارة التصوف وقيم الجهاد لمواجهة الظلم والظغيان .

رابعا : الطرق الصوفية صالحة لدعم المجتمع المدنى والاهتمام بأنشطة اجتماعية خدمية فى التعليم والصحة وإغاثة المحتاجين .

خامسا : مثلما للتصوف دور هام فى دعم التسامح بين الفرق الإسلامية فإن له دورا هاما كذلك فى دعم التعايش والحوار بين الأديان .

الإعلام

الإعلام فى البلدان الإسلامية اليوم يعانى من حزمة عيوب . فالصدق وسائر مكارم الأخلاق قيم إسلامية ملزمة . كذلك احترام الرأى الآخر الذى تبرزه الشورى ، ومنع الجهر بالسوء من القول ، وإيجاب النصيحة للكافة . . الدين النصيحة لله ورسوله وللمؤمنين .

إن القيم الإعلامية الإسلامية من حيث الخير الصادق ، واحترام الرأى الآخر ، والبحث عن المقولة الاجتهادية الجادة ، والترفيه البرىء معلومة ولكنها غير مرعية فى غالبية البلاد الإسلامية . . إنها بلدان تعانى فى الغالب من إعلام موجه لدول مستبدة .

الصدق من أوائل ضحايا الاستبداد لأن الاستبداد يقوم على إدعاء كاذب ، وعلى إنكار المثالب ، وعلى تزيف الحقائق . والاستبداد يغيب الرأى الآخر عمدا لأنه يحرص على بث خط أحدى .

والعيب الثالث الذى يعانى منه الإعلام لدينا هو التناول النمطى السطحي للقضايا . الحرية ، والتنافس بين الآراء هما شرطان واجبان للاجتهاد فإن غابا صار الاجتهاد عقيما .

والعيب الرابع فى الإعلام السائد حاليا هو كثرة البرامج الترفيهية الهابطة فى الأفلام والمسلسلات والأغاني . . إن كثيرا من أغاني الفيديو كليب السائدة فى الفضائيات الآن مشاهد تحرش جنسى .

ثالثا: النظرة المثالية والزهدية فى مباهج الدنيا أساس محمود للربط بين قيم الإعلام وأفقده صدقيته . . وفى مجال صدق الخبر، واحترام الرأى الآخر، فإن البرامج الإعلامية جعلت وسائل الإعلام الأجنبية جاذبة . . حقا لا ينفذ العدو من حدودنا لكنه يدب كالنمل من عيوبنا .

وسائل الإعلام العالمية صارت تصل للمواطن فى كل مكان بأخبارها، وتحليلاتها، وتنوعها، وترفيهاها، وتبث إعلاما ذا مستوى يحترم عقل المتلقى، ومهما كان فيه من غرض فإنه مخفى بصورة ذكية .

الإعلام الوطنى والإسلامى لا يعمل فى فراغ . . إنه يعمل فى تنافس مع إعلام عالمى رفيع المستوى والإمكانات فإذا هو تخلف عنه فإنه بالمقارنة يمنح الإعلام العالمى جدوى وفاعلية . كانت هذه المقارنة من أهم أسباب انهيار الاتحاد السوفيتى بإعلامه الأحادى الملل أمام الآلية الإعلامية الغربية الباهرة .

إن على الإعلام الوطنى فى البلدان الإسلامية أن يحقق إصلاحا يحقق الآتى :

أ- تحرى الخبر الصادق الدقيق المستمد من شبكة مراسلين ومحررين فادرين على نقل المعلومة من كل مكان وفى كل مجال .

ب- أن يفسح الإعلام المجال واسعا للرأى والرأى الآخر .

ج- أن يتناول القضايا المختلفة الفكرية والسياسية، والثقافية، والأدبية، والاقتصادية، والرياضية بدرجات رفيعة من الاجتهاد .

د- أن يهتم الإعلام كما ينبغى بالتوعية والخطاب الدينى متجنباً الانكفاء من ناحية والتبعية للوافد من الناحية الأخرى .

هـ- أن يعبر عن التنوع الفكرى والثقافى فى المجتمعات المعنية .

و- الترفيه من الضرورات الإنسانية . فالقلوب إذا ملت كلت، وإذا كلت عميت . . ينبغى أن يفسح الإعلام فى كافة مجالاته للترفيه كحاجة إنسانية متجنباً الإسفاف وتحرش الغرائز .

هذه العيوب الموجودة بدرجات متفاوتة فى الإعلام فى بلداننا أطاحت بقيمة هذا العصر الحديث قادر على حماية الذات الثقافى من الركون لمفاهيم ماضوية متحجرة أو الاستسلام للغزو الإعلامى الخارجى .

ختام

إن تحقيق العافية الإيمانية والفكرية والثقافية يبدأ باتخاذ الموقف الصحيح من هذه القضايا موقف له وفاء لما ينبغى له الوفاء من التأصيل وله مستقبل فى آفاق التحديث العولمة .

إن الدين ضرورة للإنسانية وكذلك التطور الفكرى والثقافى والاجتماعى . دين الإنسانية هو ذلك الذى يشيع ضرورات الإنسانية العشر المادية ، الروحية ، المعرفية ، العاطفية ، الأخلاقية ، الجمالية ، الفنية ، الاجتماعية ، البيئية والرياضية . ويقبل التعايش مع التعددية ويفسح المجال للتطور من داخل مبادئه وليس على حسابها .

الهوامش

- ١- أبو الأعلى المودودى (١٩٣٠-١٩٧٩م) : انظر هامش : ١٤ - المقدمة .
- ٢- البخارى (الإمام) (١٩٤-٢٥٦هـ / ٨٠٩-٨٦٩م) : انظر هامش : ٨ - المقدمة .
